الأميرة والعجوز

تأليف: عماد حسن الشافعى
رسوم عطية الزهيرى

مكتبة الإيمان بالمنصورة - بجوار جامعة الأزهر
ت : ٣٥٧٨٨٢

بسم الله الرحمن الرحيم

« الأميرة والعجوز »

كان ياما كان، فى سالف الأوان، فى مدينة «ليما» عاصمة «بيرو» بأمريكا الجنوبية.

كان الصمتُ المُوحشُ الرهيبُ يُخيِّمُ على قصر نائب الملك، وحاكم البلاد، فلا يتكلمُ أحد إلا سِراًّ، ولا تسمعُ إلا هَمْسَاً، ولا يمشى أحد فى رُدهات القصر الكَبير إلا على رؤوسِ أصابع قدميه.

وكانت الأَبْسطِةُ المفروشةُ فى غُرفِ القصر وممراته تُخفى كل مايمكن أن يُحدثه الرائحون والغادون من ضَوضاء أو جلبة.

وكان الحراس يحيطون بالقصر الكبير، ويقفون على الطرقات المؤدية إليه لكى يمنعوا الناس من إحداث أى صوت أو ضوضاء.

ما الحكاية؟ . . ولماذا هذا السكون الرهيب ؟!

هناك شىء خطير جعل الناس، والحراس والملك فى توترٍ وقلق . .

فالأميرةُ «فرانسيسكا» زوجة المركيز ـ نائب الملك ـ مريضة مرضاً خطيراً، وأصابتها حُمَّى شديدة، وهى مهددة بين لحظةٍ وأخرى بالموت.



واجتمع حول سريرها أطباء المركيز المختصون للتداول فى حالتها. والتشاور فى كيفية علاجها، أو حتى إسعافها من وعكتها.

وكانوا يتهامسونَ، وعلى وجوههم ملامحُ اليأس من شفائها، وفى نبراتِ صوتهم وهَمْسهم دلائلُ العجز عن إنقاذها من الموت. فحالتها تسير من السىء إلى الأسوأ، وهى في غيبوبةٍ دائمة، والوقتُ يمضى، وكلما قدَّموا لها دواءً زادها ذلك وهناً على وهن فقال كبيرُ الأطباء لزملائه: لابد من استدعاء المركيز ومصارحته.

وسكتَ الطبيبُ لحظةً ثم أردفَ قائلاً وقد اعتصره الأسى: لقد أصبحتْ أيدينا مغلولةً حيال الموت، وباتت وشيكةً اللحظةُ التى تفارق فيها روحُ الأميرة جسدها الفانى، إن مرضها هذا لم نعرف له دواءً ناجعاً حتى الآن، إنه مرض الموت.. فليأت المركيز - نائب الملك - ليطبق بيديه أجفانَ زوجته ويقبِّلها ويودِّعها.

دخلَ المركيزُ حزيناً، وسأل الأطباءَ بصوتٍ مُرتعش:

كيف حال المريضة يا أعزاء؟

فأجابه كبير الأطباء: إن حالتها سيئةٌ ياصاحب السموٌّ، وقد انقطع كل أمل لنا بشفائها.

رد المركيز وهو يمسك رأسه ويتلوى: آه.. اسكت..



لاتقل ذلك . . بل لا أستطيع أن أسمع ذلك . .

قال الطبيب بصوت واهن: إننى أقوم بما يُحَتِّمهُ علىّ واجبى كطبيب ياسيدى المركيز.

قال المركيزُ والدموعُ مِلءُ مآقيه: أَتُسمِّى هذا واجباً؟! . . أَمِنَ واجباتك الطبية أن تحطم كل أمل لى بنجاة زوجتى الحبيبة؟

ألا يمكن أن تحدث معجزة . . يا إلهى . .

قال الطبيب: معجزة!! . . طبعاً ممكن . . ولكن ذلك ياسيدى ليس فى أيدينا، والذى يقوله لنا العلم عن هذا المرض - حسبما عرفنا - هو أن الأميرة العزيزة «فرنسيسكا» لن تشهد أكثر من ثلاث مرات شروق الشمس وغروبها بعد اليوم حتى يقف قلبها وقفته الأبدية التى تنتهى بها الحياة.

صاح المركيز بحزن: ياإلهى!! ماذا تقول؟! - ماسم هذا المرض الخبيث الذى سيسلبُ منى كل شىء، ويحرمنى من زوجتى الحبيبة إلى الأبد؟!

قال الطبيب: ليس بين السماء والأرض فى بلادنا، أو فى أى بلاد أخرى - حسب مانعرف - من يستطيع أن يتغلب ياسيدى على هذا المرض العُضَال وشدَّة بطشه ونحن كأطباء نُقِرُّ بعجزنا كل العجز عن مكافحته والتغلب عليه. فعفواً ياسيدى المركيز . هذه هى الحقيقة التى نعرفها.

فخرجَ المركيزُ - نائب الملك - من القاعة واجِماً حزيناً، وفى



عينيه دموع. ولحقه الطبيب يحاول تخفيف وقع الصدمة عليه، وهو يقول: إن الموت ياسيدى المركيز سيُريح الأميرةَ من الآلام التى تعانيها.

رد عليه المركيز دون أدنى التفاتة: احتفظ بهذا الحكم لنفسك ياعزيزى الطبيب، إنكم مع مابلغتموه من العلم عاجزون عن شفائها.. ولكن لن أيأس وسأوفد فرساناً ورسلاً إلى أنحاء المملكة كافة ليفتشوا عن شخص قد يستطيع إنقاذها بخبرته وعلمه من مخالبِ الموت.

وانتشر فرسانُ الملك ورسلُه فى جميع أنحاء البلاد يطوفونها باحثين عن الشخص المطلوب فى المدن والقرى، وعلى رؤوس الجبال، وفى بطون الأودية.

وقال رجل لأحد الفرسان: إن فى قمة جبل «آندة» شيخاً كبيراً خبيراً بالأعشاب، عليماً بأسرارها. وهو يعيش هناك فى صومعته زاهداً متقشفاً.

فألْوى الفارسُ عِنَانَ جواده وانطلق نحو قمة الجبل بأقصى سرعة حتى وصل إلى الشيخ الزاهد. وسأله: أأنت الذى قيل عنك أنك تعرف بعض أسرار الأعشاب؟

قال الشيخ: نعم ياسيدى..

قال الفارس: إذاً، تعال الآن إلى قصر نائب الملك لتعالج زوجته، فهو الذى أوفدنى إليك، وإذا نجحتَ فى علاجها



سيغمرك بالمال الوفير، وبعيشةٍ هانئة فى قصره الكبير.

قال الشيخ: إن شيئاً من ذلك لا يغرينى بالذهاب إلى القصر الملكى، ولكنى سأعمل على شفاء المريضة لوجه الله الذى وهبنى المعرفة بأسرار الأعشاب.

قال الفارس: هيا بنا إلى قصر نائب الملك أيها الشيخ النبيل.

وعندما وصل الفارس ومعه رجل الأعشاب إلى القصر، أخذ النبلاء يهزون رؤوسهم استخفافاً، ويتساءلون بسخرية:

أهذا الشيخ ذو الثياب الرثَّة، المنقطع فى أعالى الجبال والذى لا يعرف عن الدنيا شيئاً هو الذى يستطيع إنقاذ المركيزة من المرض العُضَال؟!.. لا .. لا لايجوز لنائب الملك أن يسمح لمثل هذا المخلوق بالدخول إلى مِخْدَعِ المركيزة بأَسْمَاله البالية القذرة..

تعالوا بنا إلى قائد الحُراس نستوضحه فى هذا الأمر.

وفى تلك اللحظة أطل نائب الملك نفسه من شرفة فى الطابق الثانى تطل على الحديقة فرآهم، فصاح قائلاً: لاتعترضوا الرجل، فأنا الذى استدعيته. فدخل الشيخ فى صُحْبَةِ الفارس.

استقبلَ نائبُ الملك الشيخَ الزاهدَ بحفاوة شديدة، وقادَهُ إلى سرير المريضة. وقف الشيخُ بجوار سرير الأميرة يتأملها، ثم راح يفتش فى كيسه الممتلىء بالأعشاب حتى أخرج منه قشوراً جافة، فغلاها، واستخرج منها شراباً خضَّه وصفَّاه ثم أعطى



الأميرة منه جُرْعةً بعد جُرعةٍ وكانت المريضة تنقبض أسارير وجهها وهى تتجرعها على مَضَضٍ وتقول ياإلهى!! ما أمرَّ مذاق هذا الشراب؟!

وبعد لحظات، سكنتْ الأميرةُ وراحت فى إغماءة، فَنَدَتْ عن نائب الملك صيحةُ فزعٍ وصرخ بالشيخ: لقد ماتت!

رد الرجل وهو هادئ النفس واثقٌ مما فعل: لا ياسيدى.. إنها إن شاء الله ستُشفى، ستنام الآن، ولا تصحو إلا عند المساء، ثم أعود إلى تجريعها كميةً أخرى من الدواء وستعودُ إليها بعد أيامٍ قليلةٍ صحتها كأحسن ما كانت عليه من قبل.

قال المركيز: حقق الله أقوالك أيها الشيخ الكريم.

قال الشيخ: ثق ياسيدى بأن هذا الشراب الذى أعددته من قشور بعض الأشجار لا يخيب أبداً فى معالجة الحُمَّى.. إنها قشور مأخوذة من شجرة برية تنبت عند مُنْحدر الجبل الأعلى، وقد اهتديت إلى سرِّها من سكان الجبل نفسه. إنهم ذوو خبرة بالأعشاب أيضا.

قال المركيز ـ نائب الملك ـ: وكيف عرفتم ذلك؟

قال الشيخ تعلَّم الإنسانُ من الحيوان أشياء كثيرة، مثلما تعلَّم قابيلُ من الغراب كيف يُوارى جثةَ أخيه الميت.

فمثلاً.. أحياناً ياسيدى يرى الراعى البسيط، أو البدوى الفقير مشهداً يثير انتباهه، ويتعلم منه حكمة الحياة فى الكون.



كأن يرى أحد الرعاة كلباً يجرى مسرعاً، ويطوف لاهثًا فزعاً بين الزروع، متنقلاً من عُشْبٍ إلى عُشْبٍ ، يشمُّه ثَم ينصرف عنه، حتى يقف عند عُشبة ما ويأكل منها وهو يشعر بالامتعاض من ثمرها المُرِّ الذى لايكَادُ يُسيغُه .

وتعلَّم الراعى بعد النظر فى هذه العشبة والأكل منها أنها تسبب الإسهال والقىء. وأن الكلب المسكين ما أكل منها إلا لحاجته إلى مُسَهِّل يُنظف أمعاءه .

وقد هداه الله إليها . .

قال المركيز: عجيبٌ أمر هذه الحيوانات، فهى أصلاً لا تأكلُ العشب!

قال الشيخ: بل الأعجب ياسيدى أن يرى أحدهم حيةً تصارعُ حيةً أُخرى، وتصيبها بجروح، فتذهب حيةٌ ثالثة وتتشمم فى الأعشاب حتى تقف عند نبتة بعينها وتقطع منها ورقة، وتفتتها وتضعها على موضع الجرح، وتكرر ذلك. فيفطن الراعى إلى أن هذه العشبة تداوى القروح، وتسكن الآلام.

قال المركيز: سبحان الله. . مليئةٌ هذه الدنيا بالعجائب.

إننى أرى أنك أيها الشيخ الحكيم جدير بأن تكون طبيبى الخاص، فإن وافقتَ على ذلك أسكنتُك قصرى وألبستك الحرير، وأغدقت عليك بالذهب، لأنك أوفرُ حكمةً من رجالٍ حكماء.



قال الشيخ : هذا عرضٌ كريمٌ منك ياسيدى، ولكنى أفضل أن تأذن لى بالعودة إلى الجبال بعد انتهاء مهمتى. . فقد اعتدتُ العيش فيها قانعاً بما يرزقنى به ربى، ومتأملاً فى الطبيعة من حولى، ومتفكراً فى مخلوقات الله، وإننى أود التعرف على المزيد من أسرار الأعشاب .

قال المركيز: لك ماتريد أيها الشيخ الحكيم، فارجع إلى كوخك ـ بعد قضاءِ مهمتك هذه ـ راشداً، وستكون برغم ذلك طبيبى الخاص تعالج أفراد رعيتى.

وظل الشيخُ ملازماً فراشَ الأميرة يعطيها الدواء ويصبرُ عليها، وبدأتْ أحوالها تتحسنُ قليلاً، وبدأتْ تستعيدُ نشاطها رويداً رويداً وعادتْ إليها بعد أيام نضارَتها وصحتها وأطلق نائبُ الملك فرسانه من جديد يطوفون أنحاءَ البلاد، وينقلون للرعية بشرى شفاء الأميرة من مرضها العُضال على يد الشيخ الحكيم رجل الأعشاب.

وأعفى المركيزُ الرعيةَ من ضرائب سنةٍ كاملةٍ، وأُقيمتْ الأعيادُ فى كل وادٍ ابتهاجاً بشفاء الأميرة.

« تمـــت »

*****